رأفت افندي والمؤذن

قصة بقلم صباح محيي الدين

كانت الشمس قد غابت وراء التلال التي تسد الأفق ، ولم يبق في السماء سوى فزعات وردية وساد الكون هدوء يطرزه حفيف الماء على السكر وانين النواعير الخفيت . وكنت جالساً على الجسر الروماني القديم الذي يقبب ظهره فوق نهر العاصي كأنه هو متنزه ، اسرح نظري في الماء الجاري واستسلم لدهدة النواعير الرتيبة واملأ صدري بالنسيم البارد الآتي من سهل الزنبقي

واخرجني من تأملي صوت صديقي احمد وهو يقول :

– مرحباً

ويجلس الى جانبي ، على عادته كل مساء .

وفجأة علا في الجو صوت المؤذن ينساب من المئذنة في نغمات ناعمة ، ويتجاوب في الوادي ثم يحطه النسيم الى بعيد . ولم تكن الأذن لتعي من الأذان الا موسيقاه تتخلل هدوء المساء وترسم على الطبيعة المفتونة بظلال الغسق دنيا من الصوفية الجميلة .

وانتهى المؤذن من ترتيله ، وظللنا – احمد وانا – ساكتين صامتين ، متذوقين حتى آخر ذرة من جمال هذه اللحظات الفريدة ، ثم قطعت الصمت ، على كره وقلت :

– كأنكم قد ابدلتم مؤذنكم هذه السنة . لقد كان صوت المؤذن السابق جميلا دون شك ، الا ان صوت المؤذن الحاضر اجمل بكثير . والحق اني لم اسمع ما يشبه هذا الصوت الا في الجامع الكبير في حلب ، وهذا عجيب في بلدة صغيرة مثل « لولية » .

فقال احمد وهو يبتسم عن رضى واعتزاز :

– بلدتنا تتمتع بامتياز فريد في كل المنطقة من ملس حتى الزنبقي ومن سلقين حتى جسر الشغور ، ويؤكد لك كل من مر بلولية انه لم يسمع قط اصواتاً اجمل من اصوات المؤذنين الذين تعاقبوا على الجامع الكبير عندنا ، ويحدثك كل من تسأله عن سحر القيام عند الفجر على انغام التسبيح تنثال من المئذنة الى آذان المؤمنين وافئدتهم فيسبحون بحمد المولى مبدع كل شيء ومبدع صوت المؤذن على وجه الخصوص .

فقلت بدوري :

– ليس فيما تقول مبالغة ، فلقد سمعت الناس في ادلب نفسها يمدحون مؤذنكم .

وهنا ضحك احمد وقال :

– وهل تدري متى بدأ هذا الصوت الحسن ؟

قلت : من قديم جداً ولا بد ، حتى بلغ هذا المبلغ .

– هذا ما يظنه الجيل الحاضر ويشيعه الجيل القديم ، جيل والدي وجدي وفي المسألة سر نحافظ عليه كما نحافظ على نور عيوننا . ولو علم به جيراننا في سلقين او القنية مثلا لفضحوه . اما انت فقد اصبحت منا وفينا وساحدثك بالسر المكتوم على ان تعدني بكتمانه .

فأكدت لصاحبي أني بئر للأسرار لا يدري اذني اليسرى ما سمعت اذني اليمنى وان لساني يمج افشاء الأسرار (ولم يدخل في الوعد قلمي ولذا فاني اردد السر دون ان أنكث بوعدي)

وهنا قال احمد : لكل هذا قصة طريفة انقلها لك عن والدي .

حدثني والدي قال : كان ذلك قبل السفر برلك ، وكنا في خير وبركة لولا ازعاجات جاويش السوقية الذي كان يزور لولية كلما احتاج الى بعض المال يصرفه على شرب العرق او لعب القمار ، فنتفادى ازعاجاته ببعض المجيديات او بالهرب اسبوعاً او اثنين الى قرية اخرى . وكان الزمان غير هذا الزمان ، الناس مؤمنون ، والنساء لا يذهبن الى المدارس . وليس بين قريتنا والعالم الخارجي سوى دروب المكارية . وكانت السفرة الى حلب مثل الذهاب الى الحج الخارج منه مولود والداخل فيه مفقود

وكان مدير الناحية وقتئذ رؤوف بك وهو رجل محترم من مدينة اورفا في بر الأناضول ، متمسك باهداب الدين لا يقضي امراً الا بمشورة الشيخ علي افندي ، امام الجامع الكبير ومدير الاوقاف . اما قائد الدرك فكان اسمه عزة افندي – ولست محدثك عن هذا بل عن خلفه رأفت افندي او « الدالي »(١) كما اطلقنا عليه اللقب بعد الحادثة المشهورة .

وكان رأفت افندي حين جاء قريتنا ، كهلا في الخامسة والاربعين من عمره ، متين البنية ، متوسط القوام ، ذا شاربين ثخينين يتهدلان حول فمه ووصل قائد الدرك الجديد قادماً من ملاطيه في بر الاناضول حيث ولد وأدى خدمته العسكرية ثم انخرط في سلك الدرك كجندي بسيط . وترفع حتى وصل الى رتبة « باش جاويش » . وكان رأفت افندي لا يعرف سوى اللغة التركية ، ولكنه سرعان ما بدأ يلتقط بعض الكلمات العربية ، ولم تمض الا سنة او اقل حتى اصبح يعرف كل الشتائم من « قرد » الى « الله يمحقك » يمزجها – حين يغضب – بعدد محترم من الشتائم التركية وينهيها قائلا « لا حول ولا قوة الا بالله » فينقلب الحول في فمه هولا ويأتي حديثه مما يضحك المخوزق .

ولا يذهبن بك الظن الى ان قائد الدرك كان زنديقاً ، بل الأمر بالعكس . فانه كان تقياً ورعاً صلب الايمان لا يقطع وقتاً ، وإن كانت بعض السنة السوء تقول انه كان يشرب العرق . ولكن ذلك – اذا صح – كان بسبب مهنته ثم متى كان شرب العرق عيباً ؟

وسكن رأفت افندي بيتاً يلاصق الجامع الكبير ، بحيث تطل المأذنة – وهي قليلة الارتفاع كما ترى – على سطح البيت . وكان للجامع مؤذن اسمه الحاج حمدو رحمة الله عليه – وهو من اولياء الله الصالحين ، ولا عيب فيه – وسبحان من ليس فيه عيب – الا صوته ، فانه كان اجش خشناً مزعجاً ولكن ذلك من صنع الله تعالى ، جل اسمه ، فلم يكن احد ليعيب عليه ذلك

(١) المجنون باللغة التركية

ولكن الامور تبدلت – ورأي الناس في ذلك الصوت تغير – حين اصبح الحاج حمدو مؤذناً في الجامع الكبير . ولا شك في انك تتساءل كيف القيت تلك الوظيفة الى صاحب الصوت الاجش الخشن المزعج . لقد كان سبب ذلك الشيخ علي الامام ومدير الوقف .

فقد كان عندنا مؤذن من حلب ، ما احلى صوته كأنه القمري ، ثم مات رحمة الله على انفاسه – وكان من المعقول ان يستبدل بآخر حلو الصوت ايضاً . ولكن الشيخ علي قال ان الوقف لا يتحمل مصروف مؤذن غريب – وياله من مصروف .. ثلاثة مجيديات في الشهر . ولكن العالمين بخفايا الامور كانوا يقولون ان الشيخ علي يفضل ان تظل المجيديات في جيبه مع باقي غلة الوقف ، فيزيد عدد زيتوناته ويقدم لزوجته الشابة هدايا اخرى . ولكن انا لا اعرف ، الله ما بيننا وبينه .

وخلاصة الأمر ، ظل الجامع دون مؤذن اكثر من شهر ، فضج اهل القرية بالشكوى الى الشيخ علي ثم الى مدير الناحية ، وبعد اخذ ورد اقنع الشيخ المدير بان الوقف فقير جداً ، وعرض عليه ان يلتمس متطوعاً من السكان يؤذن في الناس . ولكن من منا – على ما كنا عليه من تقوى – كان ليتطوع للاذان خمس مرات في اليوم بما في ذلك اذان الفجر والتسبيح ، فضلا عن ليالي رمضان وأذان التراويح ؟ لقد كانت اشغالنا تأخذ كل وقتنا – لا مثل اولاد اليوم الذين يقضون اوقاتهم في القهوة يلعبون الطاولة او الدامة ، او في البوسطة رائحين الى حلب وعائدين منها .

واستمر الحال على هذا المنوال شهراً آخر واشتد احتجاج الاهلين ، وكاد الشيخ علي يقتنع باخراج المجيديات الثلاثة شهرياً من جيبه لتوظيف مؤذن جديد لولا رحمة من ربك . وكانت رحمة بالشيخ علي ، لا باهل القرية .

فقد عرض الحاج حمدو ان يتطوع للأذان . وكان قد بلغ من العمر ما يمنعه من العمل واصبح يعيش على ما اقتصده وعلى ما تدره عليه بضع زيتونات وعشر او عشرون شجرة لوز ، وما يتحنن عليه به الافندية والاغوات. ولما كان الحاج حمدو عاطلا باطلا ، كان يقضي نهاره بفك رموز « اخبار الصالحين و « ورد الشافعي » ويفهمها على قدر عقله ، ولا يكاد يخرج من الجامع . ولذا فانه وجد في الأذان فرصة لارضاء ضميره وارضاء خالقه .

وهكذا نكبت القرية بصوت الحاج حمدو . ولم يكن الامر خطيراً اثناء النهار ، لأن صوته لم يكن قوياً بحيث يطغى على ضجة السوق وهدير العاصي على السكر واذين النواعير . ولكن المصيبة كانت سوداء عند الفجر ، فان صوته كان يفيض على الاسطحة ، ويتسلل الى الاحواش ويرتطم بالجبلين فيردده الصدى مرات . وكانت النكبة اعظم على الساكنين قرب الجامع ، خصوصاً في الصيف حين ينام الناس على الاسطحة .

ومن بين هؤلاء كان رأفت افندي قائد الدرك كما ذكرت لك . فحين بدأ الحاج حمدو تطوعه ، كان الوقت شتاء والناس قد اغلقوا الابواب والشبابيك اغلاقاً محكماً فما يتسرب اليها الهواء البارد ولا الاصوات الخارجية . ثم جاء الربيع فانفتحت الابواب والشبابيك واخذ رأفت افندي يستفيق كل فجر على جثير المؤذن ، فيتعوذ ويحوقل ويطلب من الله الفرج . وما مر شهر آذار حتى طفح الكيل مع رأفت افندي ، فتوجه ذات صباح الى بيت الشيخ علي يحتج على المؤذن وعلى صوته ، مبيناً انه – على الرغم من تقواه وتعلقه بشعائر الدين – لم يعد يستطع صبراً على هذا النهيق .

وقابله الشيخ علي بالترحاب واستمع اليه وهو يفرك يديه ثم ابتسم ابتسامة صفراء حاول ان يتلطف فيها وشرح له ان ميزانية الوقف لا تتحمل اية نفقة جديدة ، وان الأذان من شعائر الدين امر الله بها ان تقام وليس يستطيع ان يتحمل امام الله والناس مسؤولية ترك القرية دون اذان .

وخرج رأفت افندي من عند الشيخ علي وفي قرارة نفسه أمل عظيم – يحاول ان يكتمه فلا يستطيع – أمل في ان تزلق رجل الحاج حمدو ذات يوم قريب وهو يصعد الى المئذنة فتدق عنقه – او بالاصح ، لا ، فلم يكن رأفت افندي شريراً الى هذا الحد ، ولم يكن امله يتجاوز ان يتدحرج المؤذن على الدرج – ولو مرة – ويترك الأذان بعد ذلك .

ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث ، إذ ان عناية الرحمن كانت تحيط بالحاج حمدو . وكان الصيف قد اقبل ، وهو على ما تعلم من حر شديد رطب ، يقذف بنا الى الاسطحة في الليل نلتمس البرودة والنسيم ونحاول النوم . وصعد رأفت افندي مع عائلته الى السطح فاصبح اقرب ما يكون من صوت الحاج حمدو ، يوقظه كل فجر بتسبيحه واذانه . وفي ذات ليلة .. وهنا دعني اقول لك ان جبل الوسطاني كان مملوءاً وقتها بعصابات الجتة (١) تعيث فيه فساداً وتهاجم الرعيان والمسافرين والمكارية وقد تنزل الى القرى احياناً . واذكر ان عمال الجتة تفاقمت في ذلك الصيف ، فاضطر رجال الدرك من كل المخافر الى الخروج لمطاردتهم ، وكان رأفت افندي من بين الذين اشتركوا في المطاردة تحت شمس محرقة تتوهج في كبد السماء وعلى كل صخرة من صخور الجبل فتشوي الجلد وتعمي العينين .

وفي ذات ليلة عاد رأفت افندي الى بيته بعد ثمان واربعين ساعة من المطاردة لم يغمض له فيها جفن ، وغسل وجهه ويديه ليبرد ، وصعد الى السطح لينام ، وكان الوقت قبيل الفجر بقليل . وبعد ان قرأ الفاتحة وآية الكرسي وضع مسدسه تحت مخدته واستسلم لنوم عميق .

---

(١) اسم يطلق في شمال سوريا على قطاع الطرق

صدر حديثاً

موتى بلا قبور

البغي الفاضلة

مسرحيتان

بقلم جان بول سارتر

ترجمة الدكتور سهيل ادريس والمحامي جلال مطرجي

في سلسلة روائع المسرح العالمي

منشورات دار الآداب

ص.ب ٤١٢٣

ولم يكد يغيب عن الوجود حتى بدأ الحاج حمدو يسبح في المئذنة ويجود ويترنم الصلاة خير من النو ...م ، ويكررها على كل نغم ممكن. فانتفض رأفت افندي كالملسوع ومد يده الى مسدسه فاستله من تحت المخدة وافرغ رصاصاته الست في اتجاه المئذنة . ودوى الرصاص في اذني الحاج حمد فانقطع النسبيح في حلقه واسرع نحو الدرج يلتمس فيه ملجأ فزلقت رجله وتدحرج حتى صحن الجامع حيث انطرح على طوله ، مرضوضاً مقطوع الفؤاد من الخوف واخذ يصيح كالديك الذبيح .

واستفاق الحي ، بل القرية بكاملها على صوت الرصاص ، وهب رجال الدرك الى اسلحتهم ، واخذت النسوة تصيح .. جته ، جته ، وساد القرية الذعر والارتباك لم يبددها سوى صوت رأفت افندي وهو يصيح ..

– الله بلا في ورسن ، بس مؤذن . (١)

ويفهمنا في عربية مكسرة مختلطة بالتركية ما حدث . وفهمنا انه اطلق الرصاص ، اما لماذا فقد علمناه في اليوم التالي ، بعد ان اجتمع رأفت افندي والشيخ علي ومدير الناحية .

ويبدو ان رأفت افندي وقد اجهده التعب ، ما كاد ينام حتى اخذ يحلم بمطاردة الاشقياء ووجد نفسه في مأزق حرج وحين علا جثير الحاج حمدو ، خيل للنائم انه صوت رئيس اركته يأمر باطلاق الرصاص عليه فامتدت يده الى مسدسه في حركة لا شعورية ليدافع عن نفسه .

وهذا مهما يكن هو الصيغة الرسمية للأمر ، وهي لا تدع مجالا لتفسير قول رأفت افندي عن المؤذن ..

– الله بلاني ورسن .. بس مؤذن .

فقد سرى في اسماع العارفين بالامور ان رأفت افندي كان يبيت تلك الواقعة منذ زمن بعيد ، وانتهز فرصة تعبه التي هيأت له عذراً مقبولا ، فتخلص من المؤذن ومن صوته الكريه .. وخلصنا جميعاً . إذ من منا كان يجرؤ على اتخاذ مثل هذا التدبير الحاسم . ولولا رأفت افندي لظل الحاج حمدو يزعجنا حتى مماته .اوتدري في اي سن مات ؟ في الخامسة والثمانين .

ومهما يقل عن الشيخ علي ، فانه لم يكن غبياً ، اذ انه فهم الحادثة على حقيقتها كما ان مدير الناحية رصه قليلا وعرض له ان سمعة القرية وسمعة جامعها رهن بالمؤذن الذي سيأتي به .

ومنذ ذلك اليوم ، والوقف يستحضر اجمل الاصوات من حلب وغيرها لتؤذن في الجامع الكبير ، حتى اصبح يقال .. « صوت كأنه صوت مؤذن لولية » .

وحين انهى صاحبي احمد قصته قلت :

– لو ان زي التماثيل سائر في بلادنا لوجب ان تقيموا تمثالا لرأفت افندي تكتبون عليه ..

من لوليه الشاكرة
الى رأفت افنـــدي
بطل الذوق الجميل

لندن

صباح محي الدين

(١) ما معناه : قبحك الله ، ايها المؤذن الملعون !

الثريات الانيقـــــة

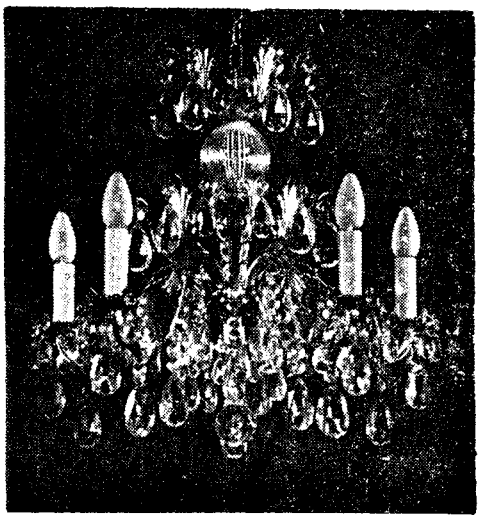

والاواني الجميلة

تجدونها في معارض

كمال وشركاه

جانب اوتيل بريستول – بيروت